حمدي عبدالرحمن حسن

محمد عاشور مهدي *

الإسلام في أفريقيا :

من الإرث الاستعماري إلى تحديات العولمة (٢/١)

(الصفحات ١٥١- ١٦٨)

ملخّص

هذه الدراسة تتناول الذات الحضارية الافريقية في إطار الإسلام من خلال ثلاثة عناصر: التاريخ، المؤثرات الخارجية، وقضايا النظام الدولي الجديد، وتأتي صعوبة الدراسة في هذا الحقل من تحديد نماذج الدراسة: هل الحديث عن مجتمعات إسلامية أو جاليات إسلامية أو ربما أقليات إسلامية، إذ لا تتوفر الإحصاءات الدقيقة.

يتناول هذا القسم من البحث عوامل وتحديات الاستعمار،وفيه وقفات عند عوامل انتشار الإسلام في أفريقيا، وخريطة انتشار الإسلام وظهور الممالك الإسلامية، واشكاليات الإرث الاستعماري، وسنتناول في الحلقة التالية من البحث مشكلات الدولة والدعوة في مرحلة الاستقلال، وتحديات الدولة القومية والدعوة الإسلامية.

* - باحثان في مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة.

يعد الإسلام أحد المكونات الرئيسية للموروث الحضاري الأفريقي. وقد حسبه «علي مزروعي» أحد أبعاد ثلاثة تشكل الميراث الثلاثي لأفريقيا. وعليه فإن التأكيد على الذات الحضارية الأفريقية يمثل خطوة واعية لوضع أفريقيا على طريق النهضة والتعامل الصحيح مع واقع ومتغيرات العالم من حولها. أليست أفريقيا بحق كما وصفها مفكرنا الأشهر جمال حمدان هي: «جبهة زحف الإسلام واحتياطي توسّعه في المستقبل»؟![1].

وليس بخاف أن حال أفريقيا والمسلمين بها و إن كانت له خصوصية غير منكرة إلا أنه لا يخالف المشكلات والعوائق التي تواجه المسلمين في مناطق العالم الأخرى. يعنى ذلك أن أبعاد التصور الذي نطرحه في هذا السياق لواقع أفريقيا الإسلامية عبر قرن من الزمان لابد وأن تشتمل على العناصر الثلاثة التالية:

١ – **قضية التاريخ والتاريخ**: إذ لا يخفى أن إعادة قراءة التاريخ الأفريقي نظمًا وثقافات وطرائق حياة أمر لازم لاستنهاض مكنونات أفريقيا الحضارية، والتخلص من عمليات التشوية المستمرة التي تعرض لها. لقد دخل الإسلام أفريقيا منذ أربعة عشر قرنًا، و إذا أخذنا بتعريف جغرافي معين يرفض انتهاء حدود أفريقيا عند البحر الأحمر لأمكن القول بأن الإسلام ولد في أفريقيا. وعلى أي الأحوال فقد دخل الإسلام أفريقيا حوالي عام (٦٠٠م) حينما هاجر نفر من مسلمي مكة إلى الحبشة فرارًا بدينهم إلى أحضان ملك عادل.

وتشهد أفريقيا اليوم ونحن دخلنا الألفية الثالثة من الميلاد أكبر عدد من المتحدثين باللغة العربية، و إلى جانب ذلك فهي تمثل بحق دون سائر قارات الأرض الأخرى، القارة المسلمة. وقد كان تأثير الإسلام على التطور الاجتماعي في أفريقيا عظيمًا وملموسًا على الرغم من تجاهل ذلك في دراسات العالم الإسلامي. ولا يخفى تأثير الإسلام على المجتمعات الأفريقية في نواحي اللغة والعادات والملبس والسلوك الاجتماعي والفنون والموسيقى والعمارة والفلسفة والأخلاق وما شاكل ذلك. ألم تمثل المدن الإسلامية العريقة مثل: جاو، وتمبكتو، وكانو، وزرايا،

وسوكوتو مراكز للتجارة ومنارات للتعليم. لقد كانت جامعة تمبكتو في أوج عزها خلال القرن السادس عشرالميلادي تضم مائة وخمسين مدرسة ومكتبة ضخمة تضم العديد من المقتنيات العامة والخاصة.

لقد كان من أبرزعلماء تمبكتوالشيخ «أحمد بابا» الذي ألف ما يربو على أربعين كتابًا باللغة العربية لا يزال بعضها مقروءًا حتى اليوم. وفي القرن الثامن عشرقدمت لنا تمبكتو أيضًا أحد أعلام الصوفية المعدودين وهو سيدي المختار الكونتي الذي قدم للمكتبة الإسلامية نحو ثلاثمائة مجلد. وعلى صعيد آخر أسهمت سوكوتو في أواخرالقرن التاسع عشربدوربارزفي نهضة أفريقيا الإسلامية. فقد قام الشيخ عثمان بن فودي بتأسيس الخلافة الإسلامية في مدينة سوكوتو، كما أنه أسهم بتقديم نحو خمسين ومائة مؤلف ومخطوط[٢].

إننا لا يمكن أن نفهم الواقع الراهن دون عودة إلى الجذورالتاريخية.فمع مقدم الاستعمارالأوروبي بذلت محاولات منظمة لاجتثاث الأفريقي من جذوره و إبعاده عن تراثه تحت دعاوى متعددة منها الحداثة والتحضروتجاوزالتخلف وما شاكل ذلك.

وعلى الرغم من رحيل المستعمربردائه العسكري وتحقيق الاستقلال السياسي الذي نادى به «كوامي نكروما» فإن فترة ما بعد الاستقلال شهدت ترديًا واضحًا وصل إلى حد الانهيارفي كثيرمن الحالات حتى أضحت مشكلة الفهم بالنسبة للواقع الأفريقي تستعصي على كافة المقتربات والأطروحات النظرية التي قدمها النموذج المعرفي الغربي من أجل التفسيروالتحليل.

واستنادًا إلى ذلك فإن هذا المكون التاريخي سوف تتم معالجته في هذا التصور من خلال العناصرالآتية:

(أ) خبرة ما قبل الاستعمارولا سيما الممالك الإسلامية كتلك التي تأسست في غرب أفريقيا (غانا ومالي والصنغاي).

(ب) الاحتكاك الأوروبي بأفريقيا وغزوها عسكريًا وأثرنظم الإدارة الاستعمارية على المواريث الحضارية الأفريقية ولا سيما المناطق الإسلامية.

(ج) خبرة ما بعد الاستقلال وعلاقة الظاهرة الدينية بالظاهرة السياسية في الواقع الأفريقي. ويمكن في هذا السياق إبرازالرؤية المقارنة في إطارحركة الدولة والمجتمع والتاريخ.

٢- **قضية العوامل الدولية والخارجية**: حيث يتم التركيزعلى الدورالذي قامت به القوى الدولية المختلفة عبرمراحل زمنية طويلة من أجل التخلص من التراث الحضاري الأفريقي؛ وذلك عبرأساليب وأدوات متعددة يمكن أن نميزفي إطارها بين مستويين:

المستوى الأول: وهو المستوى الرسمي حيث يبرزفي هذا الخصوص دورالقوى الاستعمارية السابقة (فرنسا وبريطانيا و إيطاليا وبلجيكا وألمانيا) بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

المستوى الثاني: وهو المستوى غيرالرسمي وفيه يتم تحليل دورالمنظمات والجمعيات غيرالحكومية، والتي تقوم بدوررئيس في عمليات الإحصاء الثقافي للمجتمعات الأفريقية وتغييرطرائق حياتها، ومن أمثله ذلك جمعيات التنصير والتبشيرالمختلفة، ومجلس الكنائس العالمي.

٢- قضايا النظام الدولي الجديد ومدلولاتها في الخبرة الأفريقية المعاصرة. وهنا تطرح مجموعة من الإشكاليات مثل:

- العولمة في السياق الأفريقي.
- قضايا التحول الديموقراطي وحقوق الإنسان.
- قضايا الهوية الثقافية والنظام الأفريقي الأمثل.
- أبعاد العلاقة بين الداخلي والخارجي.

أضف، إلى ما سبق فإن دراسة واقع المسلمين في أفريقيا لا تخلو من صعوبات منهاجية و إجرائية. ولعل أبرزتلك الصعوبات ما يرتبط بتحديد نماذج الدراسة هل نتحدث عن مجتمعات إسلامية أو جاليات إسلامية أو ربما أقليات إسلامية إن صح التعبير، وتحديد هذه النماذج يعتمد بدرجة كبيرة على المعيارالعددي والإحصائي.

وهو الأمر الذي يجعله محفوفًا بالمخاطر؛ فالواقع الأفريقي يعاني من عدم دقة الإحصاءات السكانية وربما عدم توافرها في كثيرمن الأحيان.وكذلك تغاير نسب السكان سواء بالزيادة أو النقصان في الدول الأفريقية. ومن الناحية الإجرائية يمكن القول بأنه إذا زادت نسبة المسلمين عن ٥٠٪ في أي دولة أفريقية. اعتبرت دولة إسلامية حتى لو وقفت السلطات الحاكمة في هذه الدولة من الدين موقف الحياد أو بمعنى آخرتبنت العلمانية. هذا التحديد الإجرائي للدولة الإسلامية في أفريقيا يقودنا إلى وجود ثلاثة نماذج للظاهرة الإسلامية في علاقتها بالسلطة الحاكمة في الدول الأفريقية.

١ - النموذج الأول: وهو يتمثل في وجود أغلبية مسلمة تعيش في ظل دولة إسلامية.

٢- النموذج الثاني: وهو يبرزعندما يكون المسلمون أغلبية في المجتمع بيد أن النخبة الحاكمة تأخذ بالمفهوم العلماني للدولة.

٣- النموذج الثالث: ويتمثل في وجود المسلمين كأقلية في الدول الأفريقية.

واستنادًا إلى المحددات الإجرائية والمنهاجية السابقة فإن هذا الجزء ينقسم إلى ثلاثة مطالب أساسية:

يدور**أولها** حول عوامل انتشارالإسلام وخريطته قبل مفهوم الاستعمارالأوروبي ثم يتناول بالتحليل والدراسة إشكاليات الإرث الاستعماري. أما **المطلب الثاني** فإن يدورحول البعد الدولي سواء على الصعيد الرسمي أو غيرالرسمي وما يطرحه من تحديات ومعوقات أمام حركة الإسلام في أفريقيا. ويدور**المطلب الثالث** حول تحديات الدولة القومية والدعوة الإسلامية ومخاطرالعولمة، وذلك على النحو التالي:

المطلب الأول: عوامل وتحديات الاستعمار

أولاً: عوامل انتشار الإسلام في أفريقيا:

ينبغي أن نؤكد منذ البداية أن الإسلام دخل أفريقيا منذ عهد النبوة، حينما هاجربعض الصحابة إلى الحبشة، ومنذ ذلك العهد وعملية أسلحة أفريقيا متواصلة

الحلقات حيث اشتملت على العديد من السبل والوسائل. و إذا توقفنا عند حدود المرحلة الأولى التي امتدت حتى بدايات الاحتكاك الأوروبي بأفريقيا، ثم تكريس عملية التكالب الاستعماري عليها بمقتضى مؤتمر برلين ١٨٨٤، ١٨٨٥، لاستطعنا أن نحدد العوامل الخمسة الآتية [٣]:

١ – **الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا**: حيث ترتب عليه تحول سكان الشمال الأفريقي إلى الإسلام. ومع ذلك فإن هذه الوسيلة لم تستخدم في أفريقيا جنوب الصحراء. فانتشار «دعوة الإسلام في أفريقيا لم تقم على القسر، و إنما قامت على الإقناع الذي كان يقوم به دعاه متفرقون لا يملكون حولاً ولا طولاً إلا إيمانهم العميق بدينهم».

٢- **العوامل الشخصية:** ومنها ما قام به التجار المسلمون من دور واضح في نشر الدعوة الإسلامية. فقد كانت الطرق التجارية الموصلة بين المراكز الإسلامية في شمال القارة والبلاد الواقعة فيما وراء الصحراء هي المسالك الحقيقية التي انتقل من خلالها الإسلام إلى قلب أفريقية. وبالإضافة إلى التجارة فقد قام عدد من العلماء والفقهاء برحلات سياحية إلى أفريقيا حيث عرضوا علمهم على الأفارقة كافة، كما أنهم تعلموا اللغات الأفريقية وكتبوا بها.

٣- **الهجرات:** لعبت تحركات القبائل وهجراتها دورًا عظيمًا في نشر الإسلام في أفريقيا. ولعل أهم هذه الهجرات شأنًا هجرات القبائل العربية التي دخلت مصر في أعقاب الفتح الإسلامي لها واستقرت في وادي النيل. وقد كان للهجرات التي تمت عبر الصحراء الأفريقية بين الشمال والجنوب دورٌ كبيرٌ في نشر الإسلام. وقد كان قوام هذه الهجرات قبائل «البربر» سكان الشمال الذين تبنوا الإسلام منذ عهد مبكر. وعلى الرغم من أنهم كانوا يستوطنون الشمال فإن الكثيرين منهم قد أخلوا مكانهم للمسلمين الفاتحين، واندفعوا هم صوب الجنوب حيث حملوا معهم دعوة الإسلام.

٤- **طبيعة الدين الإسلامي**: ونقصد بذلك ما يتسم به الدين الإسلامي من

سمات جعلته قريبًا من أفئدة الأفارقة، بالإضافة إلى موقفه من بعض القضايا التي تهم الأفارقة كقضية الرق وكذلك نظام المعاملات والأحوال الشخصية، فالإسلام دين سهل وواضح ليس فيه أسرار أو طقوس معقدة، ولا يستدعي الأمر من المرء حتى يكون مسلمًا إلا أن يقول الشهادتين وبعدها يصبح مسلمًا له من الحقوق وعليه من الواجبات مثلما لإخوانه المسلمين.وقد ساعدت البيئة الثقافية والاجتماعية في أفريقيا على انتشار الإسلام بالإضافة الى عدم قدرة المسيحية على منافسة الإسلام في هذا المجال.

٥- **الطرق الصوفية:** لقد لعبت هذه الطرق دورًا مهمًا في جذب كثيرمن الأفارقة إلى الإسلام. فقد كان الشيخ ومريدوه ينزلون على القبيلة ويقيمون بها حلقات الذكروينشدون الأناشيد والتراتيل الدينية، والشيخ تكسوه حالة من وقار، والمريدون يظهرون له أسمى آيات الطاعة والولاء، يتلمسون منه البركة والدعوات الصالحات؛ فتتوافد على الشيخ جموع الراغبين في دخول الإسلام. ولعل من أبرز الطرق الصوفية التي لعبت دورًا مهمًا في نشرالإسلام في غرب أفريقيا، الطريقة القادرية التي تنسب إلى الشيخ عبدالقادرالجيلاني، والطريقة التيجانية التي تنسب إلى الفقية الجزائري أبى العباس أحمد بن محمد بن المختار.

ثانيًا: خريطة انتشار الإسلام وظهور الممالك الإسلامية:

إن ظهور ممالك إسلامية مزدهرة ولاسيما في غرب أفريقيا قد شكل وبحق أحد أبرزملامح التطورالسياسي والاجتماعي في التاريخ الأفريقي الحديث والمعاصر.ونحن ندين بمعلوماتنا عن هذه الفترة للكتّاب والرحالة العرب أمثال ابن حوقل والبكري والمسعودي وابن بطوطة وغيرهم[٤].

١- إمبراطورية غانا:

تعد أول إمبراطورية أفريقية تتوفرعنها معلومات بفضل كتابات المعلمين العرب وفي مقدمتهم ابن حوقل والبكرى. لقد أنشا شعب السونينكي دولة غانا القوية في منطقة السافانا الواسعة بين السنغال والنيجر. وامتدت سيطرة غانا

لتشمل الشعوب المجاورة. وطبقًا لكتاب *تاريخ السودان* الذين كتب في تمبكتو حوالي عام (١٦٥٠م)، فإن غانا شهدت اثنين وعشرين ملكًا قبل فترة الحكم الإسلامي عام (٦٢٢) واثنين وعشرين ملكًا بعد دخول الإسلام.

وقد كتب اليعقوبي في عام (٨٧٢م) أن «ملك غانا هو ملك عظيم، وأن في مملكته مناجم من الذهب، وأنه يخضع لحكمه عددٌ كبيرٌ من الممالك» منها ممالك سوداء في الجنوب كممالك تكرور وسوسو، وفي شرق بلاد دلتا النيجر الوسطى. ومنها كذلك إمارات والاتا وأوداغوست البربرية.

٢- إمبراطورية مالي:

وقد نشأت على يد الماندنجو، وهي شعوب زنجية تقطن سهل مادنكا الواقع بين السنغال والنيجر. وعلى الرغم من أن النشأة التاريخية لدولة الماندنكا ترجع إلى قبيل عام ألف ميلادية فإن منسي موسى المعروف باسم موسى الأسود، يعد المؤسس الحقيقي لإمبراطورية مالي، حيث تمكن من إخضاع تمبكتو، وامتد حكمه خلال الفترة من ١٣١٢ إلى ١٣٣٧م.

ومن أبرز إسهامات منسي موسى لتاريخ مالي تلك المكانة العالية والصيت الذائع الذي حققه في العالم الإسلامي، وربما يعزي ذلك أساسًا إلى رحلة الحج التي كان يقوم بها للأراضي المقدسة في الحجازخلال الفترة من ١٣٢٤- ١٣٢٦.إذ أحيطت رحلته بمظاهرالفخامة والأبهة حيث كان يرافقه نحو ستين ألفًا من ندمائه وخدمه يلبسون أزهى الثياب ويحملون معهم ما يقدرون على حمله من الذهب.وكان الملك يضرب به المثل في الجود والكرم.

وقد تمكن المؤرخ العربي والرحالة الكبيرابن بطوطة من زيارة مالي عام (١٥٣٢) حيث قدم وصفًا مستفيضًا عن حياة تلك الإمبراطورية التي كانت في ذلك الوقت قد تجاوزت قمة مجدها وعزها.

ومثلما كان نظام الحكم في إمبراطورية غانا فإن مالي كانت تخضع لحكم ملوك ينتمون لأسرحاكمة قوية، وقد تمكن هؤلاء الملوك من حكم

مختلف أرجاء الإمبراطورية التي أطلق عليها «الأقاليم» من خلال حكام محليين كانوا ينتمون بدورهم إلى أسرحاكمة مهمة في مناطقهم الإقليمية. يعني ذلك أن ملك مالي كان يقوم بتفويض سلطته للحكام في الأقاليم المختلفة الذين يدينون له بالولاء والطاعة وهكذا تمكنت مالي من المحافظة على استقرارها ووحدتها ردحًا طويلاً من الزمان.

٣- إمبراطورية الصونغاي:

ربما كانت هذه الإمبراطورية أكثرإحكامًا من حيث تنظيمها السياسي مما كان عليه الحال في عهد إمبراطورية مالي. وقد وصلت هذه الإمبراطورية عصرها الذهبي عام ١٤٩٣م عندما استولى على السلطة محمد تورودو الذي اتخذ لنفسه اسم الآسكيا محمد.

لقد كان هذا الإمبراطورتقيًا ورعًا حيث اتخذ إجراءات مشددة للحفاظ على الأخلاق العامة وتعاليم الإسلام. فكلف رجالاًأمناء بمهام العسس الليلي حيث كانوا يلقون القبض على كل رجل يتحدث ليلاً إلى امرأة لاتمت إليه بصلة رحم. كما أنه قام في عام ١٤٩٦ برحلة حج شهيرة إلى الحجازأعادت إلى الأذهان رحلات منسي موسى الشهيرة. وقد اشترى في مكة بيوتًا خصصها لحجيج السودان. وحينما عاد إلى الوطن انهمك في نشرالإسلام بين شعب الموسى ولعله من المفيد أن نشيرإلى المستوى الثقافي الراقي الذي وصلت إليه الصنغاي.

فقد ذكر ليون الأفريقي إنه كان يوجد في تمبكتوعدة قضاة وأطباء وكهان كانوا يتقاضون روابتهم من الملك الذي كان يرعى الأدب. وكان يباع

*- هو جان ليون ١٤٨٣ – ١٥٥٤،ولد في غرناطة ودرس في فاس ،وسافرفي جميع أنحاء بلاد السودان إلى أن استقربمصر،ثم في صقلية عام ١٥١٧، ثم وقع في أسرأحد القراصنة الصقليين، فقدم إلى البابا ليون العاشرالذي جعله يعتنق المسيحية، وبعد أن أصبح استاذًا في جامعة بولونيا، وانتهى به المطاف إلى تونس والعودة إلى الإسلام. ومن أبرزمؤلفاته *وصف أفريقيا* عام ١٥٢٦،وقد صدرفي فرنسا عام ١٩٥٦ عن ميزون نوف.

فيها كثيرمن الكتب المخطوطة الآتية من بلاد البربر، وكانت هذه التجارة تدر من الأرباح أكثرمما تدره أية تجارة أخرى».

ثالثًا: إشكاليات الإرث الاستعماري:

لقد تدافعت القوى الاستعماري الأوربية جميعًا على أفريقيا بهدف تأسيس إمبراطورية استعمارية لكل منها. وهي العملية التي أطلق عليها في نهاية القرن التاسع عشراسم التكالب الاستعماري على أفريقيا «The Scramble for Africa» . ومع اختلاف النظم والسياسات الاستعمارية فإن ثمة مجموعة من الملامح العامة مثلت قاسمًا مشتركًا للحركة الاستعمارية في أفريقيا من أبرزها[٥]:

١ – **أن جميع الدول الاستعمارية رفعت شعارالأبوية السياسية**. أي أنها جاءت إلى أفريقيا بزعم تحقيق مهمة عالمية حضارية، وهي نشرالمدنية بين الأفارقة. ويبدوأن البعثات التبشيرية أسهمت بشكل بارزفي تعضيد هذا الاعتقاد. لقد نشرت إحدى البعثات التبشيرية بيانًا حماسيًا لأعضائها في إحدى جرائد ساحل الذهب (غانا حاليًا) جاء فيه «إلى الأمام يا جنود المسيح حيث بلاد الكفروالوثنية، كتب الصلوات في جيوبكم ما هي إلا بنادق في أيديكم، خذوا البشرى السعيدة حيث أماكن التجارة، انشروا الإنجيل مع البندقية».

وحينما تحولت المحميات الأفريقية إلى مستعمرات فإن الدول الأوروبية لم تأخذ هذا الشعارالنظري بمحمل الجد، حيث أفصحت عن وجهها الحقيقي في استغلال ثروات وخيرات القارة الأفريقية. ويبدوأن فرنسا كانت أكثرالدول الأفريقية جدية في رفع هذا الشعار. ففي وقت مبكرمن عام ١٨٨٤، تم تأسيس الاليانس فرانسيزأو (التحالف الفرنسي) كأداة للهيمنة التعليمية الثقافية. وقد دعمته الحكومة الفرنسية. **على أن الفرنسيين ركزوا في الواقع على انتقاء أقلية صغيرة من الأفارقة يمكن إخضاعها بالكامل لعملية الاستيعاب الثقافي كي تصبح مؤهلة لمساعدة فرناس في إدارة المستعمرات الشاسعة التي تمتلكها في أفريقيا.**

٢- أن الحركة الاستعمارية في أفريقيا واجهت. بعد انكشاف أهدافها الحقيقية مقاومة عنيفة من الأفارقة، ففي غرب أفريقيا لم يتمكن الاحتلال الفرنسي من التوسع عبرجامبيا وكازمانس، إلا بعد القضاء على مقاومة مامادو لامين درامي(١٨٨٥-١٨٨٧). كما أن شعب «آبي» في شرقي كوت ديفوارعبّر عن مقاومته للاحتلال بشكل بطولي استمرنحو ٢٧ عامًا خلال الفترة من (١٨٩١-١٩١٨). وفي شرق أفريقيا اندلعت ثورة الماجي ماجي عام ١٨٩٠. أضف إلى ذلك فإن شعوب السوزو والزولو قاومت بشكل بطولي كافة مظاهرالهيمنة الاستعمارية في الجنوب الأفريقي خلال أعوام الثمانينيات من القرن التاسع عشر.

٣- لقد أفضت عملية التدافع الأوروبي على احتلال واستعمارأفريقيا إلى خلق ظاهرة الدولة الحديثة. إذ سعت الدول الأوروبية إلى وضع أسس السلطة الاستعمارية فأنشأت الهياكل الإدراية، والبنى الأساسية اللازمة لتحقيق هذا الغرض. وبالتالي فإن الدولة الأفريقية المعاصرة في معظم الحالات هي نتاج استعماري أي أن أساسها مصطنع ولا تعبرعن واقع اجتماعي واقتصادي وسياسي، وفقًا لمفهوم الدولة القومية. فالإقليم وهو وعاء الدولة ليس إلا نتاج تحديد تعسفي من السلطة الاستعمارية في إطارمنظومة توازن القوى التي حكمت عملية تخاطف أفريقيا. كما أن مجتمع الدولة الأفريقية يموج بالعديد من الجماعات المتمايزة في ثقافاتها ولغاتها وأديانها ومن ثم انتفت إرادة التعايش الجماعي في سياق هذه الدولة المصطنعة ولذلك فإن ظاهرة الدولة الأفريقية التي أنشأها الاستعمارهي تعبير قانوني أكثرمن كونها حقيقة واقعية واجتماعية.

٤- ارتبط بمحاولات الدولة الأوروبية الاستعمارية خلق الهياكل الإدارية والبنى الأساسية السابقة الإشارة إليها ظهوردول مصطنعة Artificial States، وبحدود مصطنعة .فقد رسمت حدود المستعمرات على خرائط في أوروبا بما يتمشى مع المصالح الاستعمارية؛ وبالتالي فإنها لم تراع الظروف الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات الأفريقية **ولذلك فإن مشكلات الحدود الأفريقية تعتبر من أبرزمواريث الحكم الاستعماري.**

٥- أدى الغزو الاستعماري لأفريقيا إلى تنامي الروح الوطنية الأفريقية. فمنذ المراحل الأولى لغزو القارة عبرت روح المقاومة الوطنية الأفريقية عن نفسها دائمًا ودون انقطاع، تحت أشكال مختلفة جانبها التوفيق أحيانًا ولفها غموض الرؤية أحيانًا أخرى. ولكنها بقيت متأججة حتى عاد لأفريقيا الاستقلال الذي فقدته. وبالتالي ليس صحيحًا ما رددته الأدبيات الاستعمارية من انعدام الشعور الوطني لدى الأفارقة.

لكن السؤال المطروح ونحن في هذا السياق التاريخي يرتبط بتأثير الاستعمار على الظاهرة الإسلامية في أفريقيا. نستطيع ومنذ البداية أن نشير إلى عدد من الملاحظات المهمة التي نجدها ضرورية للإجابة على مثل هذا التساؤل:

١- إذا كان الإسلام في جوهره بالنسبة للشعوب الأفريقية هو دين أفريقي انتشر بقوته الذاتية وخصائصه الدفينة، وهو أكثر الأديان صلاحية واقترابًا من الواقع الأفريقي فإن المسيحية على الطرف الآخر مثلت الدين الاستعماري، فهي امتداد للغرب المتعصب صاحب مفاهيم الاستعلاء الحضاري. **وعلى الرغم من التحديات التي تواجه الظاهرة الإسلامية في أفريقيا غير العربية فإن الإسلام كجوهر لنظام حضاري ولمنظومة قيميه لا يزال بمقدوره أن يمارس دورًا مهمًا في عملية النهضة والتطور للشعوب الأفريقية من خلال طرح أيديولوجية ملائمة تعبر عن الواقع المعاش للإنسان الأفريقي في نهاية القرن العشرين.**

٢- القضية الأساسية في أفريقيا غير العربية والمرتبطة بالإسلام ليست قاصرة فقط على عملية الإحياء الديني من حيث العودة بالعقيدة إلى مرحلة النقاء الأول ولكنها تشتمل كذلك على عملية نشر الدعوة، فالإسلام في مواجهته للمسيحية والديانات التقليدية قد أثبت نجاحًا هائلاً من حيث التمسك به في الوعي والضمير الأفريقي وربما يعزى ذلك إلى عدد من المتغيرات لعل من أبرزها:

ـ النظرة إلى الإسلام في الإدراك الأفريقي على أنه ليس دينًا أجنبيًا، وربما يرتبط ذلك بمسالك الدعوة إليه، كما أشرنا أنفًا، حيث إن **كبار الدعاة للدين الإسلامي**

هم من الأفارقة؛ الأمرالذي جعل من الإسلام في أعين الأفارقة مجرد دعوة ذاتية وداخلية تنبع من تقاليد التعامل العقائدي الأفريقي.

ـ الإسلام وهو: دين الفطرة يتميزبالبساطة واليسروعدم التعقيد. ومن هذه الناحية يعد الإسلام أكثرالأديان السماوية وضوحًا وسلاسة.

ـ اتفاق كثيرمن مبادئ الإسلام مع أسلوب الحياة التقليدية الأفريقية. ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى قضية تعدد الزوجات يرتبط بذلك مرونة الإسلام وهو ما يتضح من قدرته على التطويع والتطبيع إزاء الواقع الأفريقي.

ـ تأكيد الإسلام على قيم العدالة والمساواة.إذ لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح. ولا شك أن هذه القيم تتفق ومتطلبات الواقع الأفريقي.

٣ – إذا كانت مسالك الإسلام في أفريقيا متعددة ومتشعبة حيث انتشربفضل التجارة عبرالصحراء، وتوغل بفضل الأفارقة أنفسهم ممن آمنوا بدعوته واتخذوه قاعدة لانتشارهم فإن سلسلة حروب الجهاد الإسلامي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشروالتي بدأها كل من إبراهيم موسى والإمام إبراهيم سوري من غينيا، وتضمنت كذلك فتوحات عثمان بن فودي من سوكوتو، والحاج عمرفي المنطقة الواقعة بين السنغال والنيجر، ومحمد أحمد المهدي في السودان، ومحمد عبدالله حسن خلال العشرين عامًا الأولى من القرن العشرين في الصومال، قد اكتسبت هذه الحروب أهميتها استنادًا إلى جانبين:

أولهما: أنها أدت إلى قيام دولة أفريقية إسلامية امتدت من المحيط الأطلسي حتى البحرالأحمروتصدت بقوة للغزوالأوروبي وهوالأمرالذي شكل جذور المقاومة الوطنية للاستعمارفي افريقيا.

أما الجانب الثاني فيتمثل في أنها طرحت ولا سيما في شمال وغرب أفريقيا رؤى إصلاحية وتجديدية تهدف إلى تنقية الإسلام والعودة به إلى الأصول وبصفة خاصة من خلال الفقه المالكي وذلك في مواجهة تأويلات الطرق الصوفية التي

انتشرت على نطاق واسع في المجتمعات الإسلامية الأفريقية. ويلاحظ أن هذه الطرق وعلى رأسها القادرية والتيجانية والمريدية مارست دورًا فاعلاً في المجتمع الأفريقي سواء فيما يتعلق بمجال نشر الدعوة أو ممارسة دور سياسي نشط في علاقتها بالسلطة الحاكمة.

٤- إزاء انتشار الإسلام في مواجهة الأديان التقليدية والمسيحية في أفريقيا، خضع تحليل الظاهرة الإسلامية لعملية دعاية في الكتابات الأوروبية المتخصصة حيث بدأ الحديث منذ نهاية القرن التاسع عشر عن ظاهرة الإسلام الأسود. فالكاتب الفرنسي فريلخ يؤكد على وجود إسلام أسود في غاية التحيز يخالف كل الاختلاف إسلام البحر الأبيض المتوسط أو إسلام منطقة الشرق الأوسط، إنه إسلام خضع لعملية إعادة صياغة وتفكير فأضحى أكثر توفقًا مع الخصائص النفسية للأجناس السوداء. وقد تجاوب بعض المفكرين الأفارقة مع تلك الأطروحات ومن هؤلاء السنغالي «ألبرت نجوما» الذي دفع بعدم وجود أي علاقة عربية أو شرقية مع إسلام أفريقيا الذي يستمد مصادره الحقيقة من التقاليد المحلية القديمة للأرض الأفريقية.

ومن جهة أخرى، سعت النخب الأفريقية الحاكمة في الدول الأفريقية الإسلامية بعد الاستقلال إلى محاولة تحييد المتغير الديني من خلال فرض دساتير علمانية تفصل بين الدين والدولة وتؤكد على حرية الأديان والمعتقدات الأفريقية. وفي دول يسودها الإسلام دأب حكامها على التأكيد على مبدأ التسامح الديني في المجتمعات الأفريقية. ولنضرب على ذلك مثلاً السنغال حيث إن أغلب سكانها (نحو ٩٥٪) من المسلمين فإن الرئيس الأول لها بعد الاستقلال طيلة عقدين كاملين ليوبولد سيدار سينجور كان مسيحيًا كاثوليكيًا، بل الأكثر من ذلك فإن خليفته الرئيس عبده ضيوف وهو مسلم تزوج من امرأة مسيحية من طائفة الروم الكاثوليك.

نظم الإدارة الاستعمارية وآثارها على واقع الظاهرة الإسلامية:

اختلفت نظم الإدارة الاستعمارية في أفريقيا بشكل واضح، ومن ثم تركت آثارًا متباينة. فقد أدرك البريطانيون والألمان بشكل عام أن مستعمراتهم تمثل وحدات كاملة، ومن ثم تعاملوا مع كل منها بشكل منفصل. ومن جهة أخرى فإن الفرنسيين والبرتغاليين نظروا إلى مستعمراتهم على أنها تمثل جزءًا لا ينفصل عن الدولة الأم، يعني ذلك ببساطة شديدة أنها مجرد مقاطعات فيما وراء البحار لقد اتبعت فرنسا نظام الحكم المباشر الذي يعتمد على مركزية فرنسية واضحة في إدارة مستعمراتها. و إلى جانب ذلك طبقت سياسة ثقافية استهدفت نشر قيم وتراث الثقافة الفرنسية. وقد بدأ تطبيق هذه السياسة في بادئ الأمر طبقا لمبدأ الاستيعاب Assimilation أو الفَرْنَسة الجماعية وهي تقوم على فرض اللغة والحضارة والمفاهيم والمنظمات الفرنسية على الحياة الأفريقية حتى يصبح الأفارقة فرنسيين في كل شيء فيما خلا لون جلودهم.

يعني ذلك اعتبار الأفارقة في المستعمرات مواطنين فرنسيين لهم نفس الحقوق والواجبات. وبالفعل اعتبرت فرنسا كل الأفارقة الذين ولدوا في سانت لويس وجوري والروفسك وداكار مواطنين فرنسيين.

بيد أن التجربة أثبتت فشل خطة الفرنسيين في تحويل الأفارقة إلى فرنسيين (الفَرْنَسة الجماعية)، كما أظهرت كذلك فشل الفرنسيين في حكم غرب أفريقيا الفرنسي كجزء من فرنسا. وعليه فسرعان ما تبنت فرنسا سياسة جديدة أطلق عليها اسم فرنسة النخبة أو المشاركة. وقوام هذه السياسة تدعيم أواصر التعاون بين الإدارة الاستعمارية الفرنسية وبعض الأفراد والهيئات المحلية؛ لخلق نخبة أفريقية مثقفة قادرة على قيادة مجتمعها وتصبح بمثابة الوسيط بين الرسالة الحضارية الفرنسية والشعب الأفريقي المتخلّف.

وعلى الرغم من اختلاف السياسات الاستعمارية كما بيّنا ذلك سلفًا، فإن المرحلة الاستعمارية التي خضعت لها أفريقيا يمكن تقسيمها استنادًا إلى اعتبارات اقتصادية واجتماعية إلى ثلاث مراحل متشابكة ومترابطة ، وهي:

* **المرحلة الأولى**: والتي تغطى الفترة الممتدة من عملية تأسيس المستعمرات الأوروبية في أفريقيا خلال العشرين عامًا الأخيرة من القرن التاسع عشروحتى نشوب الحرب العالمية الأولى. وقد واجهت قوات المستعمرمقاومة عنيفة ولا سيما من جانب بعض زعماء الحركات الإسلامية في غرب أفريقيا أمثال الحاج عمرالفوتى وساموري توري ورابح بن الزبير.

* **المرحلة الثانية**: والتي تغطى الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. فقد بدأت بتفكك الإمبراطورية الألمانية في أفريقيا. وتقسيمها وفقًا لنظام الوصاية الذي أقرته عصبة الأمم بين بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وجنوب أفريقيا. وقد اتسمت هذه المرحلة بتكريس الوجود الاستعماري في أفريقيا خدمة لمصالحه. حيث تم خلق البنية الأساسية اللازمة لتسهيل التجارة مع العالم الخارجي. ومع ذلك فإن فترة الكساد العالمي (١٩٢٩- ١٩٣١)، والمجهود الحربي الذي فرض على أفريقيا أدى إلى زيادة الأوضاع سوءًا في المستعمرات الأفريقية. وعلى سبيل المثال فقد أدت المجاعات في كاتم والجابون والنيجروفولتا العليا إلى وفاة خمسة عشر ألفًا في عام ١٩٣١.

و إذا انتقلنا إلى **المرحلة الثالثة** لوجدنا أن الحرب العالمية الثانية أظهرت أهمية المستعمرات الأفريقية كمصدرأساسي في الحصول على المواد الخام. ومن ثم فإن هذه المرحلة اتسمت بنهب الثروات الأفريقية على نطاق واسع واستغلال أفريقيا اقتصاديًا لصالح الأوربيين.

وأيًا كان الأمرفإنه على الرغم من وجود آثارعامة للنظم الإدارية الاستعمارية في أفريقيا مثل: خلق مشكلة الحدود السياسية بين المستعمرات، وربط أفريقيا بمنظومة علاقات الغرب، وخلق نظم التفرقة العنصرية، وانتهاك حقوق الإنسان الأفريقية، فإن النظم الاستعمارية المختلفة تركت مع ذلك آثارًا متباينة، حتى إننا نستطيع أن نقارن بين خبرات متعددة كالفرنكفونية (الناطق بالفرنسية) والأنجلوفونية (الناطق بالإنجليزية) واللوزيفونية (الناطق بالبرتغالية).

إن فلسفة الاستعمارالفرنسي القائمة على التوحد من خلال الإدارة المباشرة والاستيعاب الثقافي أسهمت في خلق رابطة انتماء وولاء لفرنسا في مستعمراتها الأفريقية. ولذلك نجد أن المستعمرات الفرنسية باستثناء غينيا صوتت في دستور ديجول لصالح البقاء في الجامعة الفرنسية، **أي أنها كانت ضد الاستقلال عن فرنسا**. وعلى صعيد آخرفقد أفضت السياسة البرجماتية البريطانية الى ظهور النزعات الإقليمية والإثنية. كما أن إعطاء الاستعمارالبريطاني تنازلات كبيرة لصالح المستوطنين البيض أثارمشكلات جمة في حركة التحريرالوطني الأفريقي، ولنذكرفي هذا الصدد خبرة الماوما في كينيا ونظام التفرقة العنصرية في جنوبي أفريقيا.

ولعل أخطرما واجه الظاهرة الإسلامية في أفريقيا من جراء السياسات الاستعمارية هوالآثارالثقافية.ففي تنجانيقا على سبيل المثال رفضت البعثات التبشيرية المسيحية استخدام اللغة السواحيلية في المدارس على أساس أنها تحض على نشرالقيم الإسلامية.

ويؤكد ذلك المعنى أن الإدارة الاستعمارية الألمانية حينما استخدمت في البداية اللغة السواحيلية كلغة للتعامل التجاري الحكومي وحثت الأوربيين على تعلمها احتجت البعثات التبشيرية في أوغنده، ونجحت الحملات التبشيرية ضد السواحيلية على أساس نفس الاعتبارات. فأحد رجال الدين المسيحي الأوغنديين رغم تأييده لفكرة وجود لغة واحدة تجمع شعوب أفريقيا الوسطى أصرعلى أن لاتكون تلك اللغة هي السواحيلية. يقول في ذلك:

«إذا كان وجود لغة واحدة لأفريقيا الوسطى هوأمرمرغوب فيه بإخلاص بالغ، فإن الرب حرم أن تكون هذه اللغة هي السواحيلية. أهي الإنجليزية؟ نعم..أما السواحيلية فلا، فالأولى تعني الإنجيل والمسيحية أما الثانية فتعني الإسلام»[٦].

وفي السودان تمثلت السياسات اللغوية التي تبنتها الإدارة الاستعمارية في فرض اللغة الإنجليزية كلغة رسمية واستبعاد العربية مع تشجيع اللغات المحلية.

الهوامش:

١ .جمال حمدان العالم الإسلامي المعاصر، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٧.

٢ .يمكن مراجعة المصادر الآتية:

Umar Al-Nagar, the Pilgrimage Tradition in West Africa, Khartoum, 1972, N. Leuitzion, Islam in West Africa: Religion, Society and Politics to 1800 Brookfield, Variorum, 1994. E.Saad, Socieal History of Timbuktu: the Role of muslim Scholars and Notables, 1400-1900, Cabridge, 1983, I.Sulaiman, A Revolution in History: the jihad of Usman dan Fadio, London, 1987 and J.R. Willis (ed), Studies in West African Islamic History, vol.1 ,the Cultivatiors of Islam, London: F.Cass, 1979 .

٣ .انظروراجع:

أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، الجزء ٦، ط ٤، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية،١٩٨٣، حسن أحمد محمود، الإلام والثقافة العربية في أفريقيا ،ط ٣، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٦. عبد الرحمن أحمد عثمان، الهجرات السياسية وأثرها في انتشار الإسلام في أفريقيا: دراسة تاريخية، المركز الإسلامي الأفريقي، الخرطوم ١٩٩١.

٤ .أنظر: Basil Davidson, A History of West Africa 1000-1800, London: long man, 1977.

وانظر أيضًا: جوزيف .كي .زيربو، تاريخ أفريقيا السوداء، ج ١، ترجمة يوسف شلبي/ الشام، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٤.

٥ .راجع، حمدي عبدالرحمن،قضايا في النظم السياسية الأفريقية، القاهرة، مركز دراسات المستقبل المستقبل الأفريقي ١٩٩٦.

٦ .انظر: حمدي عبدالرحمن،التعددية وأزمة بناء الدولة في أفريقيا الإسلامية، القاهرة: مركز دراسات الإسلام والمسلمون في أفريقيا (طرابلس: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية،١٩٩٨) ، ص ٣٨٩.